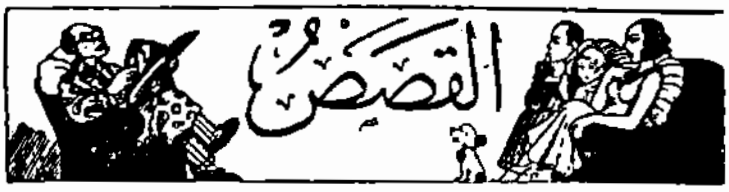

دموع صغيرة

للأديب محمد أبو المعاطي أبو النجا

كان « رأفت بك » يغادر المحطة واضعا يديه في جيب معطفه صوف الثمين وقد رفع ياقته حتى يلتف حول عنقه ، لقد كان الجو شديد البرودة والريح سريعة الهبوب ... وكان بين ن وآخر يلتفت خلفه ليستعجل الحمال الذى يحمل حقيبته كلمات مقتضبة. وكان الحمال أو بعبارة أدق الصبي الذى يحمل

لبيضة في النصف الثاني من القرن العشرين . وإنا لنأمل أن وفق الشعبة القومية في تحقيق الأغراض النبيلة التي تألفت من جلها . وفي الواقع أن الحياة العقلية في مصر الآن تعاني مشكلة ن أكبر المشاكل ، وهي أنها حياة الخاصة وليس للعامة حياة عقلية بالمعنى الحقيق . ونحن إذا أردنا النهوض بالشعب المصرى وجب أن يصل نور العلم والمعرفة إلى عقول الفلاحين والعمال بل أن يصل نور الكهرباء والماء النظيف إلى أكواخهم وبيوتهم . وإذا أردنا أن يصل نور العلم والمعرفة إلى ملايين العقول المظلمة ، وجب أن نبدأ أولا بإصلاح البيئات العلمية والمناطق التعليمية إصلاحا شاملا يتناول الأشخاص والأدوات والمناهج والأساليب لتؤدى رسالتها على الوجه الأكمل في قوة وصراحة وإخلاص ، لأن البحث عن أثر هذه البيئات طوال الثلاثين عاما الأخيرة في حياة الشعب الاجتماعية يثبت أن المجهود الذى بذلته في ذلك السبيل أفضى إلى نتائج خطيرة مفزعة : إلى الفقر والجهل والمرض ، إلى الضعف والخلف والتخلف ، إلى اللهو واللعب والتحلل ، إلى غير ذلك مما نشكو منه ونتوجع

(سرايوم) محمد يوسف القزالى

الحقيبة في الثامنة من عمره ؛ وكان يعدو خلفه بخطوات سريعة وهو يشعر بنشوة تدفئ جسمه وتسعد خواطره . . . فهو يأمل خيرا في ذلك الأفندى الأنيق . . . سيعطيه ثلاثة قروش من غير شك ؛ فمظاهر الثراء التي تلوح عليه تحمل « حسونة » على أن لا يتنازل عن هذا المبلغ ، وهو مبلغ لا بأس به . سيستطيع أن يشترى « سندوتش » بقرش ويذهب بالباقي إلى السينما . وهكذا يكون مثل محروس الذى لا يفتأ يفخر عليه بأنه يذهب إلى السينما ، ويشاهد (الشجيع) وهو في إمكانه أن يجمع نقودا كثيرة ويذهب بها إلى السينما كل مساء مثل محروس ، لولا أن بقية الحمالين يسبقونه إلى أمتعة الركاب فهم أقدر منه على السير وسط الزحام ، وهم أبرع منه في ركوب القطار أثناء سيره فيقومون بتنزيل أمتعة المسافرين ، وبذلك يكون لهم وحدهم حق المساومة فيها . وهكذا يبقى هو تحت رحمة الظروف . وقد أوشك اليوم أن يمضى دون أن يحمل شيئا لأحد من الركاب لولا أن ساقت إليه الأقدار ذلك الأفندى الأنيق الذى ينزل من القطار دون أن يساعده أحد في إنزال حقيبته . هو الآن سيدمن غير شك ؛ فهي إمكانه شراء « السندوتش » وما دام الوقت عصراً فيمكنه أن يكتفي به عن العشاء ، وفي إمكانه أيضا أن يذهب إلى السينما فيرى « الشجيع » ويتعلم منه كيف يقفز إلى القطار أثناء سيره ، وكيف يشق طريقه وسط الزحام ببراعة وقوة ، بل كيف يتغلب على محروس نفسه حين يساومه على حقيبة أحد المسافرين . أليست هي تلك الأشياء التي تعلمها « محروس » من الشجيع ، والتي يفخر بها دائما على « حسونة » ؟ . .

وكفت طيور أحلامه عن التحليق حين وقف « رأفت بك » أمام محل يبيع لعب الأطفال : فقد نسى لكثرة مشاغله أن يشترى شيئا منها لأبنائه من القاهرة ، وهو لا يستطيع أن يدخل عليهم بدون أن يحمل لهم الفضلة ... ووقف « حسونة » يتأمل اللعب في سذاجة الأطفال ، ويبدو أنها قد أعجبته إلى حد كبير فقد نسى أن يضع الحقيبة عن كتفه أثناء شراء اللعب !

وسار « رأفت بك » من جديد يتبعه « حسونة » ... ولكن خواطره في هذه المرة كانت تختلف تماما عن ذى قبل ... إن الطفل الراقد في أعماقه .. الطفل المستتر خلف هذه الثياب الخلقة

التي مزقتها أنواء الحياة ... الطفل الذي قست عليه ظروف المجتمع فحرمته لعبه حين حرمته أبويه ... هذا الطفل قد تنبه فجأة ليهتف بحق ضائع، حق ضاع في غمار ذلك المجتمع الذي تضيع فيه حقوق اليتامى والمشردين ... وهتف في صمت : ما أجمل اللعب وما أجمل ...وما أجمل أن تكون له إحداها !

واستقرت نظراته على حصان من المطاط جميل يحمله « رأفت بك » فيما يحمل من لعب . ما أروع أن يكون هذا الحصان له؛ إذن لواصل النفخ في ذيله الثقوب حتى يكبر ويستوى حصانا كاملا ؛ ثم يضمه أمامه ويتأمله بعين فرحة هي عين طفل !

ليت ذلك الأفندي يعطيه إياه بدلا من أجرته؟ وهم بأن يسأله ذلك لولا أن تذكر فجأة أن ثمنه أكثر من أجرته ...

واستولت عليه الدهشة حين أعطاه « رأفت بك » جميع اللعب ليحملها بدلا عنه ... لم يخطر بباله مطلقا أنه فعل ذلك ليتسنى له وضع يده في جيب معطفه ، وإنما تساءل في حيرة أتراه أدرك رغبته في التفرج على تلك اللعب ؟

أتراه فهم تلك الرغبة من نظراته القلقة التي كانت تتردد بين اللعب والطريق منذ غادر المحل ؟ مهما يكن من شيء فهو سعيد مادامت تلك اللعب ملء حضنه الصغير، وما دام ذلك الحصان قد وجد في يده يتحسس جلده الناعم في شغف كبير !

كانت تلك هي المرة الأولى التي تمنى فيها « حسونة » أن يطول الطريق ! وكانت تلك هي المرة الأولى أيضا التي مضى فيها الطريق بسرعة !

وكان حسونة يشعر بضيق نفسي غامر حين ضغط « رأفت بك » « زر » الجرس الكهربائي في شقته ... وانفرج الباب عن وجوه صغيرة فضولية كانت تستبق إلى رأفت بك ، فهذا الصغير يطوق عنقه في لهفة ، وذاك يثب على كتفيه في مرح، وذلك يهتف في غبطة : ماذا أحضرت لنا يابابا ؟

وهنا التفت رأفت بك إلى الخال الصغير ليأخذ منه اللعب ، وهنا أيضا كان « حسونة » هدفا لمشاعر مختلطة مبهمة بدت حيرة في عينيه واستحالت وجوما على شفتيه، مشاعر لم يتضح منها في خاطره غير تلك الرغبة الملحة في أن تكون له لعبة كهؤلاء الأطفال، أليس هو مثلهم ؟ بل إن فيهم من يكبره !

وانحسرت موجة المشاعر المختلطة عن عواطفه حين أعطاه « رأفت بك » قطعة فضية من فئة الخمسة قروش حدق فيها ببلاهة ثم قال له ليس مني « فسكة » يا بك .... ولكن البك الذي تأثر بوجومه وانقباضه قال له في عطف وهو يربت على كتفيه

ـ كلها لك ياشاطر ... !

وضم حسونة يديه معا على القطعة الفضية وجعل يتأمل وجه الأفندي الأنيق بذهول ثم تمتم بعبارات متقطعة ...

— ربنا يخليك يابك ...

وسار في الطريق من جديد. كان شيء واحد هو الذي يتمثل في خاطره ، الحصان الجميل . . . وكان سؤال واحد هو الذي يلح عليه

— ماذا يمنعه الآن من شراء الحصان ... ؟

ومضت لحظات قصيرة . . . كان بعدها يمسك بحصان المطاط ويضم ذيله المثقوب في فمه الصغير وينفخ فيه بكل رغبته .. حتى إذا استوى حصانا كبيرا جعل يتأمله في مرح طافر . ثم طاف بذهنه خاطر جميل : لماذا لا يذهب إلى المحطة ليتفرج على أصحابه « عطوة » و « أمين » ؟ ولماذا لا يريه لعروس ؟ ويزهى عليه به !

وجعل يعدو تجاه المحطة وكله فرح وسعادة . وبعد حين من العدو تقاربت خطواته وبدأ يتمهل في سيره ...

كان يشعر بأنفاسه تتلاحق، وبأعصابه توشك أن تتفكك ، وبعينيه يكاد أن يختنق فيهما النور ...

كان هناك إحساس آخر بدأ يشعر به ؛ إحساس لم يراوده منذ حين ... منذ مر مع الأفندي الأنيق ببائع اللعب ... إحساس بالجوع ... !!

ونظر حسونة إلى الحصان في ضيق هائل وانهال عليه بأسنانه يمزقه ثم ألقى به بعيداً في غيظ

وتابع خطواته المتخاذلة تجاه المحطة وهو يذرف في صمت حزين دموعا صغيرة !

محمد أبو المعاطي ابو النجا